حليف القرآن

وثورة المبادئ والقيم

أ. طه الحاضري

ورقة مقدمة في ندوة أقامتها رابطة علماء اليمن بعنوان

(حاجة الأمة إلى ثورة وفكر الإمام زيد عليه السلام)

٢٢/ محرم ١٤٣٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد:

يسعدني ويشرفني المشاركة في احياء ذكرى استشهاد الإمام زيد (ع) وذلك بالمشاركة في ندوة "حاجة الأمة إلى فكر وثورة الإمام زيد (ع)" التي تقيمها رابطة علماء اليمن بورقة عمل متواضعة.

تتضمن هذه الورقة ثلاث محاور كالتالي:

المحور الأول: الشخصية القرآنية، والذي تضمن:

- **حليف القرآن**
- **شهادات بفضل الإمام زيد (ع) وعلاقته بالقرآن**
- **الإمام زيد (ع) ومرجعية القرآن**
- **دعوته إلى الاحتكام إلى القرآن الكريم**

المحور الثاني: الإمام زيد (ع) ومكمن الداء والدواء في إصلاح الأمة، والذي تضمن:

- **مكانة العلماء مرتبطة بهداية الناس إلى النجاة**
- **العلماء المتخاذلون شركاء المجرمين في جرائمهم**
- **علماء السوء كرسي يجلس عليه المجرمون**

المحور الثالث: القيم والمبادئ في ثورة الإمام زيد (ع)، والذي تضمن:

- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**
- **إصلاح الأمة هدف لا بد أن يسعى لتحقيقه كل مؤمن**
- **الأخلاق العسكرية**
- **الثورة ليست انتقاماً**
- **الثورة عهد بالتغيير الإيجابي**
- **الروح الجهادية**

المحور الأول

الشخصية القرآنية

الحديث عن شخصية الإمام زيد (ع) وفضله لا يتجه إلى سرد الأحاديث النبوية الشريفة فيه – وهي في حد ذاتها فضل عظيم - ولا إلى التربية التي نشأ عليها في بيت والده زين العابدين (ع) – وهو فضل لا يستطيع أن ينكره أحد - ولا إلى انتسابه إلى أهل البيت (ع) - وهو شرف كبير – وإنما يتجه إلى ارتباطه العملي الوثيق بالقرآن الكريم، وإلى النتيجة العظيمة لهذا الارتباط في واقعه وفي واقع الأمة.

فالارتباط العملي بالقرآن الكريم فضل ليس فوقه فضل، ومن هذا المنطلق كان فضل أهل البيت (ع) هو ارتباطهم بالقرآن الكريم، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً : كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض).

وشخصية الإمام زيد (ع) كانت في عصره أكثر شخصية من بين أهل البيت(ع) عموماً معنية بحديث الثقلين، فقد كانت شخصيته بحق شخصية قرآنية حتى لُقِّبَ بحليف القرآن، وهذه شهادة لها مدلولاتها العظيمة.

فمنذ ولادته (ع) كان له ارتباط بالقرآن الكريم والسنة النبوية حيث وردت الأحاديث الشريفة عنه وعن ثورته واستشهاده، والتي منها أنه صلى الله عليه وآله وسلم نظر يوماً إلى زيد بن حارثة وبكى وقال: (المقتول في الله، المصلوب من أمتي، المظلوم من أهل بيتي سمي هذا)، وأشار إلى زيد بن حارثة .. ثم قال: (أدن مني يا زيد زادك الله حباً عندي، فإنك سمي الحبيب من ولدي) وكانت هذه الأخبار النبوية متداولة بين أهل البيت (ع) وحين وُلِد الإمام زيد (ع) أخذ أبوه زين العابدين (ع) المصحف الشريف، واستفتحه ونظر إلى أول آية فكانت: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما)، فأطبقه ثم فتحه فخرج له: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)، فأطبق المصحف، وفتحه مرة ثالثة فكانت: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)، فأطبق المصحف، وضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، عزيت في ولدي هذا، إنه زيد أما والله ما أجد من ولد الحسين في يوم القيامة أعظم منه وسيلة، ولا أصحاباً آثر عند الله من أصحابه).

حليف القرآن

ترعرع الإمام زيد (ع) على القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، وتلقى تربية قرآنية على يد أبيه زين العابدين وأخيه الباقر عليهما السلام، ومن نتائج هذه التربية الحسنة أن عكف (ع) على قراءة القرآن واختلى به يتدبره حتى تشربت به روحه كما تحدث عن نفسه بقوله: (خلوت بالقرآن ثلاثة عشر سنة أقرأه وأتدبره فما وجدت في طلب الرزق رخصة وما وجدت من فضل الله إلا العبادة والفقه).

وكان إذا قرأ القرآن يبكي من خشية الله تعالى حتى يظن من عنده أنه سيموت وكان إذا ذكر الله أو سمع شيئاً من ذكر الله أغمي عليه حتى يقول القائل ما هو بعائد إلى الدنيا وكان إذا سمع آيات الترغيب والترهيب ماد كما تميد الشجرة في اليوم العاصف ولهذا عُرف بين الناس بحليف القرآن، فكان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وقال: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وقال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

شهادات بفضل الإمام زيد (ع) وعلاقته بالقرآن

توالت شهادات أكابر العلماء من أهل البيت (ع) ومن غيرهم ممن عاصره بأنه (ع) كان وحيد عصره في علاقته بالقرآن، وكان الأفضل بلا استثناء من أهل البيت على وجه الخصوص ومن علماء وفضلاء الأمة على وجه العموم في عصره، فهذا الإمام جعفر الصادق وهو ابن أخيه يشهد بذلك بقوله: (كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفقهنا في دين الله وأوصلنا للرحم والله ما ترك فينا لدنيا ولا آخرة مثله). ويقول أيضاً لمن سأله عن البيعة لعمه الإمام زيد (ع): (نعم بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا وخيرنا)، وكان الإمام جعفر (ع) يوقره ويحترمه كثيراً ويُعَظِّمه فيمسك له الركاب ويسوي له الثياب على السرج.

وشهد بذلك أيضاً سلمة بن كهيل بقوله: (ما رأيت أنطق لكتاب الله من الإمام أبي الحسين) وشهد كذلك سفيان الثوري بقوله: (قام مقام الحسين، وكان أعلم خلق الله بكتاب الله) وشهد الأعمش بفضله على سائر أهل البيت بقوله: (ما كان في أهل زيد بن علي مثل زيد بن علي، ولا رأيت فيهم أفضل منه ولا أفصح ولا أعلم ولا أشجع) ويشهد بذلك ايضاً خالد بن صفوان وهو من مشاهير العرب وفصحائهم وخطبائهم بقوله: (انتهت الفصاحة والخطابة والزهادة والعبادة من بني هاشم إلى زيد بن علي) وقد شهد كذلك أبو حنيفة النعمان بفضله على سائر الأمة في عصره بقوله: (شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمنه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً، لقد كان منقطع القرين).

الإمام زيد (ع) ومرجعية القرآن

لم تكن علاقة الإمام زيد (ع) بالقرآن نظرية بل كانت علاقة عملية شاملة، فكان القرآن الكريم هو مرجعيته ومحور حركته وجوهر أفكاره، وكان دائماً يستقي منه الهدى ويتحرك في أوساط الأمة متسلحاً به، ينشر الوعي والفكر القرآني الصافي والنقي والثقافة الإسلامية الأصيلة، ويدحض كل الثقافات المغلوطة والأفكار المنحرفة من خلاله مستشهداً بآياته.

فقد دحض كل مزاعم الأمويين الذين تملَّكوا الحكم في الأمة الإسلامية بالحديد والنار والمكر والتدليس والترغيب والترهيب، وارتكبوا جرائم فضيعة ومجازر وحشية بحق أهل البيت (ع) وبحق الأمة بشكل عام، ففنّد كل الأفكار التي اختلقوها من أجل توطيد حكمهم اللاشرعي وتعميده بصبغة دينية، وحاولوا عبرها طلاءه بشرعية إسلامية، فجمعوا حولهم كثيراً من علماء السوء وأجزلوا لهم العطايا واختلقوا كثيراً من الأفكار التي نسبوها إلى الإسلام، والتي بمجملها تدعوا إلى الرضا بهم وبظلمهم وإجرامهم وإلى طاعتهم وحرمة الثورة عليهم، والتي عمدوا إلى تعميمها رسمياً وفرضوها كمنهج حكومي.

ففنّد عقيدة الجبر وقام بحملة توعوية فأفحم علماء السوء الذين كانوا يُروِّجون لها، وحرّر كثيراً من الناس من رقِّ هذه العقيدة، والتي كان النظام الأموي الغاشم قد أشاعها بين الناس حتى يتقبلوا ظلمهم واستبدادهم وفسادهم.

كما فنّد عقيدة الإرجاء عقيدة أن الإيمان قول بلا عمل والتي هدفوا من خلالها إلى تبرير فسقهم ومجونهم وانحلالهم الأخلاقي، واستشهد بالقرآن الذي تعج آياته باقتران الإيمان بالعمل.

كما فنّد عقيدة طاعة ولي الأمر الظالم وإن أخذ مالك وقصم ظهرك، والتي هدفت إلى إعطاء هم حصانة من المساءلة الشعبية والثورية ودعا إلى التغيير والإصلاح والثورة انطلاقاً من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يفوح به القرآن الكريم، يقول: (ع): (واعلموا أن فريضة اللهّ تعالى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا أقيمت له استقامت الفرائض بأسرها، هَيِّنُها وشَدِيْدُها، وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو: الدعاء إلى الإسلام، والإخراج من الظُّلْمَة، ورَدّ الظالم، وقِسْمَةِ الفَيء والغنائم على منازلها، وأخذ الصَّدقات ووضعها في مواضعها، وإقامة الحدود، وصِلَةِ الأرحام، والوفاء بالعهد، والإحسان، واجتناب المحَارم، كل هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

كما فنّد فكرة أن الكثرة هم أهل الحق وأن القلة هم أهل البدع والباطل والتي كانت تهدف إلى شرعنة وجودهم في السلطة، وذلك في مناظرة شهيرة بينه وبين علماء البلاط الأموي الذين انتخبوا أكثرهم علماً

وأجلهم قدراً عندهم لعرض هذه الفكرة فرّد عليه الإمام زيد (ع) ردّاً مفحماً من القرآن الكريم فقال: أما بعد فإن أناساً من هذه الأمة يتكلمون في الجماعة ويزعمون أنهم أهل الكثرة، وأنهم حجة اللهّ على أهل القلة من الناس، وأن القليلين من هذه الأمة هم أهل البدع والضلالة، وإنا سمعنا اللهّ تبارك وتعالى وتقدست أسماؤه وعلا نوره وظهرت حجته، قال - فيما نزل من وحيه الناطق الصادق على محمد عبده ورسوله صلى اللهّ عليه وآله وسلم، يخبر الأمم الماضية مثل: أمة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد عليهم السلام، وهم أولوا العزم من الرسل، وغير أهل الكُتُب - إن أهل الحق والجماعة وأتباع الرسل أهل القلة، وإن أهل البدع والضلالة هم الأكثرون، وإنا سمعنا اللهّ جل اسمه يثني على أهل القلة ويمدحهم، ويذم أهل الكثرة ويُجَهِّلُهُم ويُسَفِّهُهُم ويكذبهم ويضللهم، وينهى عباده الصالحين عن إتباعهم والإقتداء بهم والأخذ بمقالهم. ثم ذكر الآيات التي في القرآن الكريم التي تثبت ذلك.

فأحجم عالم أهل الشام وسكت الشاميون فلم يجيبوا لا بقليل ولا بكثير، ثم قاموا من عنده، فلما خرجوا قالوا لكبيرهم: فعل اللهّ بك وفعل، عزرتنا وزعمت أنك لا تدع له حجة إلا كسرتها فخرست فلم تنطق! قال: ويلكم كيف أكلم رجلاً إنما حآجّني بكتاب اللهّ؟ فلم أستطع أن أُكَذِّب كتاب اللهّ.

دعوته (ع) إلى الاحتكام إلى القرآن الكريم

وكان (ع) يدعوا إلى جعل القرآن الحكم في الاختلاف والتنازع، وكان يدعوا العلماء على وجه الخصوص إلى القبول والرضا والتسليم به، وأبدى استعداده للنقاش حول القضايا لتي هي محل خلاف والاحتكام إلى القرآن سواء كانت النتيجة له أو عليه يقول (ع) : (فالله اللهّ عباد اللهّ أجيبوا إلى كتاب اللهّ، وسارعوا إليه، واتخذوه حَكَماً فيما شَجَر بينكم، وعدلا فيما فيه اختلفنا، وإماماً فيما فيه تنازعنا، فإنا به راضون، وإليه منتهون، ولما فيه مُسْلِمون لنا وعلينا).

وكان يحض ويحث على جعل القرآن مرجعية شاملة للأمة كلها، ويؤكد على اتباعه فيما يحب الناس ويكرهون، وعلى اتهام كل رأي وعقيدة تتعارض مع القرآن، ويوضح الطريقة الصحيحة للتعامل الإيجابي معه فيقول: (أوصيكم أن تتخذوا كتاب اللهّ قائداً وإماماً، وأن تكونوا له تبعاً فيما أحببتم وكرهتم، وأن تَتَّهِموا أنفسكم ورأيكم فيما لا يوافق القرآن، فإن القرآن شفاءٌ لمن استشفى به، ونورٌ لمن اهتدى به، ونجاة لمن تبعه، من عمل به رَشَدَ، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فَلَج، ومن خالفه كَفَر، فيه نبأُ مَنْ قبلكم، وخبرُ معادكم، وإليه منتهى أمركم، وإياكم ومشتبهات الأمور وبدعها، فإن كل بدعة ضلالة).

وفيما يتعلق باختلاف الناس في السنة النبوية أوضح كيفية كشف الأحاديث المكذوبة على رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك بقاعدة العرض على القرآن يقول (ع) : (ما ذهب نبي قط من بين أمته إلا وقد أثبت اللهّ حججه عليهم، لئلا تبطل حجج اللهّ وبَيِّناته، فما كان من بدعة وضلالة فإنما هو من الحَدَث الذي كان من بعده، وإنه يكذب على الأنبياء صلوات اللهّ عليهم وسلامه، وقد قال رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وآله وسلم: «أعرضوا الحديث إذا سمعتموه على القرآن فما كان من القرآن فهو عني وأنا قلته، ومالم يكن على القرآن فليس عني ولم أقله، وأنا بريء منه».

المحور الثاني

الإمام زيد (ع) ومكمن الداء والدواء في إصلاح الأمة

لقد درس الإمام زيد (ع) أوضاع الأمة وشخص الفئة التي لها تأثير كبير في أوساطها فكرياً وثقافياً وحتى سياسياً، وكانت هذه الفئة هي العلماء، يقول (ع): (إنما تصلح الأمورُ على أيدى العلماء، وتفسد بهم إذا باعوا أمر اللّه تعالى ونهيه بمعاونة الظالمين الجائرين، فكذلك الجهال والسفهاء إذا كانت الأمور في أيديهم، لم يستطيعوا إلا بالجهل والسَّفَه إقامتها، فحينئذ تَصْرُخُ المواريث، وتضج الأحكام، ويفتضح المسلمون.) وقد ركز (ع) على العلماء لما لهم من أثر كبير في الناس سلباً وإيجاباً، وحيث أن الطغاة يستعملون علماء السوء كأداة فعّالة للتلبيس على الناس وتزييف الحقائق وقلب المفاهيم، ولما لسكوت العلماء من رضى ضمني يفهمه العامة من الناس، فقد أولى (ع) اهتماماً كبيراً بالعلماء وحمّلهم المسؤولية وخصّهم برسالة عظيمة وجليلة وضّح فيها دورهم الإيجابي حينما يتحركون في خط الإسلام، ودورهم السلبي حينما يدورون في فلك الظالمين، وأكّد فيها على ضرورة أن يمتلكوا الوعي السياسي والحس الثوري والروح الجهادية.

ولذلك لا عجب أن يكون أبرز العلماء العاملين والفقهاء الفضلاء أبرز مؤيدي الإمام زيد (ع) في ثورته، كالإمام جعفر الذي قال: (هو والله أفضلنا وسيدنا وخيرنا) وكالإمام أبي حنيفة النعمان الذي : (لقد ضاهى خروجه خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر) والذي قال حين أتته رُسل الإمام زيد (ع): (هو والله صاحب الحق، وهو أعلم من نعرف في هذا الزمان، فاقرئاه مني السلام، وأخبراه أن مرضاً يمنعني من الخروج معه، وأرسل بثلاثين ألف درهم لإعانته على الثورة، وقال: لئن شُفيت لأخرجن معه)

مكانة العلماء مرتبطة بهداية الناس إلى النجاة

يقول الإمام زيد (ع) في رسالته إلى العلماء وهو يوضح مكانتهم وارتباطها بدورهم: (وأنتم أيها العلماء عصابةٌ مشهورة، وبالورع مذكورة، وإلى عبادة اللّه منسوبة، وبدراسة القرآن معروفةٌ، ولكم في أعين الناس مهابةٌ، وفي المدائن والأسواق مكرمةٌ، يهابكم الشَّريف، ويكرمكم الضَّعيف، ويرهبكم من لا فضل لكم عليه، يُبدَأ بكم عند الدُعْوَةِ والتُحْفَة، ويشار إليكم في المَجَالس، وتشفعون في الحاجات إذا امتَنَعَت على الطَّالبين، وآثارُكم مُتَّبَعَةٌ، وطُرُقُكُم تُسْلَك، **كل ذلك لما يرجوه عندكم مَنْ هُوَ دونكم مِنْ النَّجاة في عرفان حق اللّه تعالى**).

العلماء المتخاذلون شركاء المجرمين في جرائمهم

سكوت العلماء وتخاذلهم عن نصرة الحق بأي مبرر كان وتحت أي ذريعة كانت هو بمثابة الشراكة مع المجرمين والجائرين والمعاونة لهم في كل جرائمهم من سفك للدماء وظلم عناد ، لأن المجرمين يستغلون هذا السكوت والتخاذل كحجة على عدم قبولهم للحق، حيث يبررون ذلك بموقف العلماء الصامتين، كما أن صمت العلماء وتخاذلهم يجعل كثيراً من الناس يتخذون نفس الموقف ويقولون إذا تحرك العالم الفلاني فسنتحرك فهو أعلم منا، وقد يظن العالم أنه ليس مع المجرمين ولكن نتيجة موقفه السلبي تجعله معهم، وهذا ما أكده الإمام زيد (ع) في رسالته إلى العلماء بقوله: (عباد اللهّ إن الظالمين قد استحلوا دماءنا، وأخافونا في ديارنا، وقد اتخذوا خُذْلانَكم حجة علينا فيما كرهوه من دعوتنا، وفيما سفهوه من حقنا، وفيما أنكروه من فضلنا عناداً لله، فأنتم شركاؤهم في دمائنا، وأعوانهم في ظلمنا، فكلُّ مالٍ للهَّ أنفقوه، وكل جمعٍ جمعوه، وكل سيف شَحَذُوه وكل عدل تركوه، وكل جور رَكِبوه، وكل ذمة للهَّ تعالى أخفروها، وكل مسلم أذلوه، وكل كتاب نَبَذوه، وكل حكم للهَّ تعالى عطلوه، وكل عهد للهَّ نقضوه فأنتم المعينون لهم على ذ لك بالسكوت عن نهيهم عن السوء.

عباد اللهّ إن الأحبار والرُّهبان من كل أمة مسؤولون عما استحفظوا عليه، فأعِدُّوا جواباً للهَّ عز وجل على سؤاله)

وهنا فليعد كل عالم لا يتحرك ضد العدوان ولا يقوم بدوره ولا يتحمل مسؤوليته، جواباً لله عز وجل.

فما أتعسها من حالة حين يظن العالم أنه على خير وقريب من الله ويعرف الشريعة ويكثر من الصلاة وقراءة القرآن، ثم يأتي يوم القيامة متحملاً لدماء الشهداء والأطفال والنساء، ويسأله الله تعالى عنها كما يسأل المعتدين ثم يحشره مع المجرمين، كم هي خسارة وندامة وبؤس حسرة، وهذا ما أشار إليه الإمام زيد (ع) بقوله وكأنه يخاطب ويعاتب العلماء الصامتين المتسمين باسمه والحاملين فكره على وجه الخصوص : (لا مالاً تبذلونه لله تعالى، ولا نفوساً تُخاطرون بها في جَنْبِ اللهّ تعالى، ولا داراً عطلتموها، ولا زوجة فارقتموها، ولا عشيرة عاديتموها. فلا تتمنوا ما عند اللهّ تعالى وقد خالفتموه، فترون أنكم تَسْعَوْن في النُّور، وتَتَلَقَّاكم الملائكة بالبشارة من اللهّ عز وجل؟ كيف تطمعون في السَّلامة يوم الطامَّة؟! وقد أَخْدَجْتُم الأمانة، وفارقتم العِلْمَ، وأدْهَنتم في الدين، وقد رأيتم عهد اللهّ منقوضاً، ودينه مبغوضاً، وأنتم لا تفزعون ومن اللهّ لا ترهبون. فلو صبرتم على الأذى، وتحملتم المؤنة في جنب اللهّ لكانت أمور اللهّ صادرة عنكم، وواردة إليكم. عباد اللهّ لا تُمَكِّنوا الظالمين من قِيَادكم بالطمع فيما بأيديهم من حُطامِ الدنيا الزَّائل، وتراثها الآفل، فتخسروا حظكم من اللهّ عز وجل).

علماء السوء كرسي يجلس عليه المجرمون

دائماً ما يعتمد المجرمون على فتاوى علماء مقربين منهم، ودائماً ما يتحرك هؤلاء العلماء في أوساط الناس للتعبئة والحشد وكل ذلك مقابل حفنة من المال، وهذه الحالة السيئة تحدث عنها الإمام زيد (ع) في رسالة إلى العلماء والتي خصّ علماء السوء بقفرات منها ، موضحاً الدور الخطير الذي يقومون به، فخاطبهم قوله: (فوالذي نفس (زيد بن علي) بيده لو بينتم للناس ما تعلمون ودعوتموهم إلى الحق الذي تعرفون، لتَضَعْضَعَ بُنْيَان الجبَّارين، ولتهَدَّم أساس الظالمين، ولكنكم اشتريتم بآيات اللهّ ثمناً قليلا، وادْهَنتم في دينه، وفارقتم كتابه.

هذا ما أخذ اللهّ عليكم من العهود والمواثيق، كي تتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، فأمْكَنتم الظلمة من الظلم، وزيَّنتم لهم الجَورَ، وشَدَدْتم لهم ملكهم بالمعاونة والمقارنة، فهذا حالكم.

فيا علماء السوء محوتم كتاب اللهّ محواً، وضربتم وجه الدين ضرباً، فَنَدَّ والله نَدِيْدَ البَعِيْرِ الشارد، هرباً منكم، فبسوء صنيعكم سُفِكَت دماء القائمين بدعوة الحق من ذرية النبي صلى اللهّ عليه وآله وسلم، ورُفِعَت رؤوسهم فوق الأسنة، وصُفِّدوا في الحديد، وخَلَصَ إليهم الذُّل، واستشعروا الكَرْب وتَسَرْبَلوا الأحزان، يتنفسون الصُّعَداء، ويتشاكون الجهد؛ فهذا ما قدمتم لأنفسكم، وهذا ما حملتموه على ظهوركم، فالله المستعان، وهو الحكم بيننا وبينكم، يقضي بالحق وهو خير الفاصلين).

وكم رأينا من العلماء قصفوا الشعب اليمني بفتاواهم قبل طائرات العدوان، فمن هذا التحالف بأمر الله مروراً بتكفير الشعب اليمني في يوم عرفة وصولاً إلى إبادة أربعة وعشرين مليون يمني من أجل مليون عميل وخائن ومرتزق يعيشون.

المحور الثالث

القيم والمبادئ في ثورة الإمام زيد (ع)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قيمة قرآنية وإسلامية أساسية، وفريضة واجبة ومنظومة دفاعية إن صح التعبير ضد الظلم والتسلط والفساد، وهي التي دفعت الإمام الحسين (ع) بالقيام بثورة المباركة، والتنصل عن القيام بها والتهرب منها نقص في الدين، وهذا ما لم يرضه الإمام زيد (ع) لنفسه بل قد كان يخشى أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو لم يقم في أمته بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث أن هذه الفريضة كمال في الدين والدين بدونها يُعتبر ناقصاً يقول (ع) حين خفقت رايات الجهاد فوق رأسه: (الحمد لله الذي أكمل لي ديني، والله ما يسرني أني لقيت محمداً ولم آمر أمته بالمعروف ولم أنههم عن المنكر) فكان يسعى لفكاك نفسه من المسؤولية تجاه ما تعانيه الأمة، وكان رضا الله تعالى أهم هدف بالنسبة له يقول (ع): (والله لو علمت عملاً هو أرضى لله تعالى من هذا الذي وضعت يدي فيه لفعلت ولأتيته، ولكني لا أعلم عملاً هو أرضى من قتال أهل الشام).

وكان ينادي العلماء كونهم الأقرب إلى القران وتعاليم الإسلام بقوله: (عباد اللهّ انصحوا داعي الحق، وانصروه إذا قد دعاكم لما يحييكم، ذلك بأن الكتاب يدعو إلى اللهّ وإلى العدل والمعروف، ويزجر عن المنكر).

وعند التحليل البسيط لمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نجد أنه مبدأ شامل وسياج آمن للدين والأمة، فالأمر هو بما هو معروف من كتاب الله وسنة رسوله وليس بغريب ولا جديد ولا دخيل، والنهي عن المنكر والمنكر هو ما أنكره الشرع الحنيف والعقل السوي، فالأمر ببساطة إقامة العدل والحق.

فالجهاد مثلاً هو معروف أنه واجب وأن فضله عظيم وأنه وأنه ... الخ والتعبئة الجهادية ضد العدوان هو ينطلق من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن لا ينطلق في تحركه من هذا المبدأ فهو أصلاً لا يأمر بالمعروف وبالتالي هو لا يعمل المعروف فيكون موقفه منكراً شعر بذلك أو لم يشعر.

والقرآن الكريم لا يُرَّخِص للناس السكوت والخنوع والذلة والقعود، ولا يسمح لهم بالتفرج على الفساد والبغي والظلم، وقد نُصح الإمام زيد (ع) من بعض محبيه أن يعدل عن ثورته فرد على الناصح بالقول: (والله ما يدعني كتاب أن أسكت) وقال: (لاَ يَسَعُنِي أَنْ أَسْكُتَ وَقَدْ خُولِفَ كِتَابُ الله تَعَالَى وُتُحُوكِمَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَذَلِكَ أَنِّي شَهِدْتُ هِشَاماً وَرَجُلٌ عِنْدَه يَسُبُّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم

فَقُلْتُ لِلسَّبَابِ لَهُ: وَيَلكَ يَا كَافِرُ أَمَا إِنِّي لَوْ تَمَكَّنْتُ مِنْكَ لاخْتَطَفْتُ رُوحَكَ وَعَجَّلْتُكَ إِلَى النَّارِ، فَقَالَ لِي هِشَامُ: مَهِ، عَنْ جَلِيسِنَا يَا زَيْدُ، فَوالله لَوْ لَمْ يَكُنْ إلاّ أَنَا وَيَحْيَى ابْنِي لَخَرَجْتُ عَلَيْهِ وَجَاهَدْتُهُ حَتَّى أَفْنَى).

فيا ترى ما هو عذر القاعدين، ويا ليت شعري ما يكون جوابهم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

إصلاح الأمة هدف لا بد أن يسعى لتحقيقه كل مؤمن

إصلاح الأمة كان العنوان العريض والهدف الشامل لتحرك الإمام زيد (ع) وتضحيته وثورته، وهو من باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) وكان اهتمام الإمام زيد (ع) وهمّه وتفكيره بإصلاح الأمة لا ينفك عنه نهاراً ولا ليلاً، فذات مرة كان في سفر ومعه صاحبه عبد الله بن مسلم بن بابك فلما كان نصف الليل واستوت الثريا قال له: يا بابكي أما ترى هذه الثريا أترى أحداً ينالها ؟ قال صاحبه: لا. قال: (والله لوددت أن يدي ملصقة بها فأقع إلى الارض أو حيث اقع فأتقطع قطعة قطعة وأن الله أصلح بين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم) بل كان يبدي استعداده أنه لو عَلِم أن نار تؤجج له فيُقذف فيها وأن الله يصلح أمر الأمة لفعل راضياً يقول (ع): (والله لو أعلم أنه تؤجج لي نار بالحطب الجزل فأقذف فيها وأن الله أصلح لهذه الأمة أمرها لفعلت)

وكان إصلاح الأمة في نظر الإمام زيد (ع) شاملاً فهو إصلاح سياسي وثقافي وفكري واجتماعي واقتصادي مالي وإداري، ويتضح ذلك من البرنامج السياسي لثورته والذي قال فيه: (إنا ندعوكم أيها الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وإلى جهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وقسم الفيء بين أهله، ورد المظالم، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا الحرب).

لقد بذل روحه وضحى من أجل إصلاح الأمة منم أجل الناس من أجل المستضعفين ولم يكن مجرد واعظ بل كان رجل قول وفعل، فهو القائل: (وذلك أنا ننزع الجائرين عن الجنود، والخزائن، والمدائن، والفيء، والغنائم، ونُثْبِتُ الأمين المؤتمن، غير الرَّاشي والمرتشي.الناقض للعهد؛ فإن نَظْهَر فهذا عهدنا، وإن نستشهد فقد نصحنا لربنا، وأدينا الحق إليه من أنفسنا، فالجنة مثوانا ومنقلبنا، فأي هذا يكره المؤمن، وفي أي هذا يرْهَب المسلم؟).

الأخلاق العسكرية

يقدم الإمام زيد (ع) القيم والأخلاق في حالة المواجهة مع العدو، وهي القيم والمبادئ الإسلامية لكن هذه القيم والمبادئ كثيراً ما كانت مجرد نظريات، وفي أرض الواقع كان الكثيرون ينسونها أو يتناسونها، ولا يستطيعون ضبط أنفسهم وأتباعهم في حالة المواجهة، أما الطغاة فلم تكن في واردهم، ونظراً لما مرت به الأمة من مجازر وحشية وجرائم نكراء داخلية كادت تكون هذه الجرائم والمجازر سنة في القتال.

يقول الإمام زيد (ع) في وثيقة يجب أن يحفظها ويعيها كل ثائر ومجاهد ويؤكد فيها على أن الهدف هو الدعوة إلى الهداية وأن اهتداء العدو خير من قتاله، ويؤكد أيضاً على الأخلاق العسكرية وعلى ضرورة أن يكون المجاهدون واعون ومستبصرون بأهدافهم ومحافظون على أخلاقهم ومبادئهم وقيمهم، يقول (ع): (إِذَا لَقِيتُمُ القَوْمَ فَادْعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكُمْ فَلأَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكُمْ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَعَلَيْكُمْ بِسِيرَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بن أبي طَالِبٍ عليه السلام بِالبَصْرَةِ وَالشَّامِ لاَ تَتْبَعُوا مُدْبِراً وَلاَ تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وَلاَ تَفْتَحُوا بَاباً مُغْلَقاً، وَاللهُ عَلَى مَا أَقُولُ وَكِيلٌ عِبَادَ الله لاَ تُقَاتِلُوا عَدُوَّكُمْ عَلَى الشَّكِّ فَتَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ الله، وَلَكِنَّ البَصِيرَةُ، ثُمَّ القِتَالُ؛ فَإِنَّ الله يُجَازِي عَنِ اليَقِينِ أَفْضَلَ جَزَاءٍ يَجْزِي بِهِ عَلَى حَقٍّ إِنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً يَشُكُّ فِي ضَلاَلَتِهَا كَمَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ حَقٍّ، عِبَادَ الله البَصِيرَةَ البَصِيرَةَ).

وهنا تحضر القيم والمبادئ حيث في الموطن الذي كان الإمام زيد (ع) أحوج ما يكون للمقاتل ضد جيوش بني أمية الكثيرة العدد والعدة إلا أنه لا يريد أن يقاتل معه إلا المخلصون والمؤمنون بعدالة قضيتهم.

الثورة ليست انتقاماً

قد يندفع بعض المقاتلون في خط الحق إلى الانتقام والمعاملة بالمثل كردة فعل على مجازر العدو وجرائمه، ولكن الجهاد والثورة هي من أجل القضاء على الظلم والاضطهاد والمجازر والجرائم، لأنها لو ارتكبت هذه الجرائم بحق العدو فما الفرق بين الثوار المجاهدين وأعدائهم.

لقد بلغ الإمام زيد (ع) مقالة لبعض أتباعه عن نيتهم الانتقام من بني أمية ومعاملتهم بالمثل وهم من فعلوا الأفاعيل بأهل البيت (ع) ، فقام فيهم خطيباً قائلاً: (أيها الناس إنه لا يزال يبلغني منكم أن قائلا يقول: إن بني أمية فَيْئٌ لنا، نخوض في دمائهم، ونرتع في أموالهم، ويقبل قولنا فيهم، وتُصَّدق دعوانا عليهم!! حكم بِلا علم، وعزم بلا روية، جزاء السيئة سيئة مثلها، عجبت لمن نطق بذلك لسانه، وحدَّثته به نفسه، أبكتاب اللهّ أخذ؟ أم بسنة نبيه صلى اللهّ عليه وآله وسلم حكم؟ أم طَمَعَ في ميلي معه، وبسطي

يدي في الجور له؟ هيهات هيهات، فاز ذو الحق بما يهوى، وأخطى الظالم بما تمنى، حق كل ذي حق في يده، وكل ذي دعوى على حجته، وبهذا بعث الله أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، ولم يُخْطِ المنصفُ حظَّه، ولم يُبْقِ الظالم على نفسه، أفلح من رضي بحكم الله، وخاب من أرغم الحقُّ أنفَه، العدل أولى بالآخرة ولو كره الجاهلون.

حق لمن أمر بالمعروف أن يجتنب المنكر، ولمن سلك سبيل العدل أن يصبر على مرارة الحق، كل نفس تسموا إلى مناها، ونعم الصاحب القنوع، وويل لمن غَصَب حقاً، أو ادعى باطلا)

الثورة عهد بالتغيير الإيجابي

دائماً ما تتكر العبارات الرنانة والوعود الزائفة للناس في الثورات، وتكون الدعاية والترويج طاغية لجذب الناس والوصول إلى الأهداف بسرعة، وكثيراً ما يتنكر الثوار إلى المبادئ ويبدأون بالتدريج في السقوط إلى الواقع الذي ثاروا عليه بسبب القيادة اللامسؤولة.

وكان الإمام زيد (ع) يؤكد على أن العهد بينه وبين الناس هو الوفاء بأهداف الثورة الواضحة والمشروعة والضرورية، وكان يؤكد أيضاً على أن أي انحراف عن أهداف الثورة فهو بمثابة نقض للعهد بينه وبينهم، وليس لهم طاعته ولا مناصرته، فكان يقول: (فإنما ندعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم الذي إذا عمل فيكم به استقام لكم دينكم، ومن استجاب لنا منكم على هذا فهو في حلٍّ مما أخذنا عليه وما أعطانا من نفسه **إن لم نستقم على ما وصفنا من العمل بكتاب الله وسنتة نبيه**).

الروح الجهادية

لم يكن الإمام زيد (ع) شخصاً سلبياً لا يتأثر بما حوله، بل كان يتفاعل ويقف المواقف البطولية بكل شجاعة ولا يخاف في الله لومة لائم، ولم يكن أيضاً شخصاً يهتم بنفسه ومصالحه بل كان يهتم بالناس ويتألم لحالهم، وكان قوّالاً بالحق أمام الجبابرة ولا يأبه بالنتائج طالما مواقفه لله وفي سبيل الله.

فهو (ع) الذي كان يدخل مجلس الخلافة وهي بمثابة دولة عظمى في زمانها فلا يسكت على الباطل ويُعلِّم الناس أنهم من يصنعون الجبابرة بسكوتهم وخوفهم، فمرة سمع الخليفة الأموي هشاماً الطاغية يقول: من قال لي اتق الله ضربت عنقه. فقال له (ع) (يا هشام اتق الله) ومرة قال للطاغية هشام بعد حديث دار بينهما: (لن تجدني إلا حيث تكره) ومرة خرج وهو يقول: (ما كره قوم حر السيوف إلا ذلوا)

ومرة سمع يهودي يسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مجلس الخلافة وبمسمع الخليفة نفسه والحضور كلهم صامتون فانبرى مدافعاً عن جده رسول الله وقال المتكلم وكان يهودياً: (ويلك يا كافر أما إني لو تمكنت منك لاختطفت روحك وعجلن بك إلى النار) فقال اله الخليفة: مه، عن جليسنا يا زيد، فخرج (ع) مغضباً وقال: والله لو لم يكن إلا أنا ويحيى ابني لخرجت عليه وجاهدته حتى أفنى).

وذات مرة رأى امرأة تقتات من القمامة فقال: (أنت وأمثالك يخرجونني غداً فاقتل)

فكان لا يأبه لمصيره إذا ما قام بواجبه فهو القائل: (وقد وثقنا من نفوسنا بالمضي على أمورنا، والجهاد في سبيل خالقنا، وشريعة نبينا صلى اللهّ عليه وآله وسلم، صابرين على الحق، لا نجزع من نائبة مَنْ ظَلَمَنا، ولا نَرْهَبُ الموتَ إذا سَلِمَ لنا دِيْنُنَا) ويقول: (فإن نَظْهَر فهذا عهدنا، وإن نستشهد فقد نصحنا لربنا، وأدينا الحق إليه من أنفسنا، فالجنة مثوانا ومنقلبنا، فأي هذا يكره المؤمن، وفي أي هذا يرْهَب المسلم؟).

وحين دنت الشهادة لتعانقه بعد أن أصيب بسهم غادر في جبينه كان حريصاً على استمرار الخط الثوري الجهادي بعده فبادر ابنه يحيى سائلاً له عن ما سيفعل بعد استشهاده قائلاً: (أي شيء تريد أن تصنع)

فأجابه بالقول: (أجاهدهم إلا أن لا أجد الناصر) فقال: (نعم يا بني جاهدهم، فوالله إنك لعلى الحق وهم لعلى الباطل، وإن قتلاك في الجنة وقتلاهم في النار) ثم قال: (الشهادة الشهادة، الحمد لله الذي رزقنيها)

والله من وراء القصد